التراث العراقي المنهوب*

أ. د. حسين نصار**

من الأمور المعروفة ، التى لاينازع فيها منازع ، أن الحضارات البشرية وجدت وازدهرت على ضفاف الأنهار الكبيرة .

ومن المعروف ، الذى لا يمارى فيه مُمار ، أن أقدم الحضارات البشرية وجدت وازدهرت فى منطقتنا (التى تُعرف الآن باسم المنطقة العربية) ، فإن لم تكن أقدمها فهى من أقدمها .

ومن المعروف المقرر ، الذى لاينكره منكر ، العداء الباطن والظاهر الذى يحمله أهل البداوة تجاه أهل الحضارة ، وأهل الهمجية البربرية تجاه أهل الازدهار الفكرى والمادى والروحى .

إذا وضعنا هذه المبادئ نصب عيوننا ، فسّرت لنا كثيرا من أحداث الحاضر ، وأبرزت أمامنا العراق ، يتمتع بحضارات تتعاقب مع تعاقب البشر الذين استوطنوه ، قد تختلف ألوانها ، وتتباين أضواؤها ، ولكنها لا تُفقد إلا مددا محدودة ، يستعيد أهل العراق بعدها كل ثقلهم الحضارى .

فقد استقر فى العراق القديم عشائر سامية وآرية ، بل والسومريون الذين لم يعرف العلماء أصولهم ، ثم غلبت عليه القبائل العربية ، منذ الفتح الإسلامى ، شأنه فى ذلك شأن بقية أقطار المنطقة .

ومن ثم يمكن أن يقال عنه ما يقال عن شقيقته مصر : إنه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب متحف حضارى ، والفرق بينهما أن النيل نهر وديع بالنسبة لدجلة الهادر المدمر .

ويتكثف ذلك فى الحلة فى وسط العراق (بابل) وفى شمال العراق فى الموصل (نينوى) ، وما بينها وبين تكريت (مدينة الحضر) ، وبعض المدن الأخرى .

فالآثار القديمة لا توجد فى المتحف وحده ، بل فى كل مكان من العراق ، ومع ذلك ، فليس من شأنى ـ ولا قدرتى ـ الحديث المفصل الدقيق عن ماضى العراق ، فلهذا رجاله ، وإنما شأنى الحديث عن العصور الإسلامية .

(*) اعتمدت فى هذا البحث على ما أورده الأستاذ أسامة ناصر النقشبندى فى بحثه «تاريخ المخطوطات فى العراق وأوضاعها الحاضرة» الذى ألقاه فى أحد اجتماعات معهد المخطوطات فى ٢٩ - ٢٠٠٢/١٠/٣٠ .

(**) أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة ، ومقرر اللجنة المشرفة على مركز تحقيق التراث بدار الكتب .

ولاتُذكر الحضارة أو الثقافة الإسلامية إلا تبادر إلى الذهن العراق عامة ، وبغداد خاصة ، ومع ذلك لم تكن بغداد أقدم منابع الثقافة الإسلامية فى العراق ، فقد سبقتها البصرة والكوفة ، ولحقت بها الموصل ، وشاركت إلى آماد متباينة مدن أخرى كثيرة .

وصب فى بغداد كل ما أبدعته المدن العراقية ، بل كل ما أبدعته المدن فى العالم الإسلامى شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، حتى صارت واسطة العقد الإسلامى الزاهر .

فإذا كانت البصرة والكوفة اشتهرت بالعلوم العربية الخالصة من لغة ونحو وأدب وتفسير وقراءات وحديث نبوى وتاريخ ؛ ومدن المشرق مثل بخارى وطشقند ونيسابور اشتهرت بالحديث والتاريخ . . . فإن بغداد ضمت كل ذلك ، وأضافت إليه ما أبدعه أبناؤها والمهاجرون إليها من شتى بقاع العالم الإسلامى .

وكان العرب الأولون يدونون معارفهم على كل مسطح ، من حجر وعظم وجريد نخل وغيرها ، كما فعلوا فى تدوين القرآن الكريم . ولكنهم سرعان ما دونوها على الرق والجلود والبردى . ثم عرفوا ـ فى بغداد ـ صناعة الورق ، فاستخدموها على أوسع نطاق ، وأهملوا الأدوات الأخرى . فيسر لهم ذاك إنشاء المكتبات أو ما سموه خزائن الكتب .

وأقدم خزانة سمعنا عنها خزانة بيت الحكمة الذى أسسه الرشيد ووصل إلى الأوج فى عهد المأمون ، ولم يكن مكتبة فحسب ، بل كان مركزا علميا له مكانته فى تطور الحضارة العربية ، ونقل الثقافات والعلوم الأجنبية إلى اللغة العربية .

وصارت سُنة أن يؤسس الخليفة المستنير مكتبة ، كما فعل المعتضد بالله (٢٤٢ - ٢٨٩ هـ/ ٨٥٧ - ٩٠٢م) والراضى بالله (٢٩٧ - ٣٢٩هـ/ ٩١٠ - ٩٤٠م) والقائم بأمر الله (٣٩١ - ٤٦٧هـ / ١٠٠١ - ١٠٧٥م) والمقتدى بأمر الله (٤٤٨ - ٤٨٧هـ/ ١٠٥٦ - ١٠٩٤م) والناصر لدين الله (٥٥٣ - ٦٢٢هـ/ ١١٥٨ - ١٢٢٥م) .

ولما كان الناس على دين ملوكهم ، حسب القول الشائع ، فقد تبارى المقتدرون من العلماء والأدباء ، وكبراء المجتمع فى اقتناء الكتب ، وفتح مكتباتهم لعامة الناس فى حياتهم أو بعد مماتهم ، مع رصد الأوقاف التى تضمن لها البقاء .

فوجدت خزائن كتب باسم الأصمعى (١٢٢-٢١٦هـ/ ٧٤٠-٨٣١م) والإمام أبى حنيفة النعمان (٨٠ - ١٥٠هـ / ٦٩٩ - ٧٦٧م) ومحمد بن عمر الواقدى (١٣٠ - ٢٠٧هـ / ٧٤٧ - ٨٢٣م) والشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦هـ/ ٩٧٠ - ١٠١٥م) وابن الجوزى (٥٠٨ - ٥٩٧هـ /

١١١٤ - ١٢٠١م) وابن الفوطى (٦٤٢ - ٧٢٣هـ/ ١٢٤٤ - ١٣٢٣م) وعبدالمؤمن بن عبدالحق الحنبلى (٦٦٨ - ٧٣٩هـ / ١٢٦٠ - ١٣٣٨م) وعلى بن إبراهيم المعروف بابن الثردة الواسطى (٦٩٧ - ٧٥٠هـ/ ١٢٩٨ - ١٣٤٩م) وأبى الثناء محمود بن عبدالله الآلوسى (١٢١٧ - ١٢٧٠هـ/ ١٨٠٢ - ١٨٥٤م) وغيرهم من أمثال عبدالله السويدى ، وعبدالوهاب نيازى ، وقوام الدين الشيبانى .

وطبيعى أن يمتد الهوى من مكتبات البيوت إلى المساجد والمدارس ، فصرنا نسمع عن مكتبات المدرسة الأحمدية ، والبشرية ، والتكية الخالدية ، والحضرة القادرية ، ودار العلم ، والطبقجلية ، والعصمتية التى أسستها شمس الضحى حفيدة صلاح الدين الأيوبى ، والعمرية ، والمرجانية ، والمستنصرية ، والنظامية .

ولا أدعى أن القائمة التى دونتها تستقصى كل ما كانت تحوى بغداد من مكتبات ، فذلك محال . وأعسر من ذلك أن أدعى أن هذه المكتبات احتوت على كل ما اقتنى العراقيون من مخطوطات .

وقد زرت - إبان وجودى فى العراق فى ستينيات القرن الفائت - مكتبة الأسرة الجليلية فى الموصل ، وباش أعيان فى البصرة ، والمجمع العلمى العراقى ، والمتحف العراقى ، ووزارة الأوقاف ، وبعض مكتبات النجف ، ومررت بمكتبة داود چلبى بالموصل .

ولا أشك أن أية محاولة لوصف غنى هذه المكتبات فاشلة كل الفشل ، وأعتقد أنه تكفينى الإشارة إلى أننى اعتمدت فى تحقيق الشاعر الإسكندرى ظافر الحداد - فيما اعتمدت عليه - على نسخة كانت محفوظة فى النجف ، وأن الصديق أ . د . سامى مكى العانى كان مما اعتمد عليه فى تحقيق «الأخبار الموفقيات» مخطوطة كانت فى المكتبة العباسية لآل باش أعيان العباسيين بالبصرة ، وأن مكتبة الجليليين كانت تقتنى مخطوطة بخط يد مؤرخ مصر المقريزى من كتابه «درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة» وغير هذه الإشارات كثير لا يعد ولا يحصى .

وتدل القائمة - مما تدل - على أن عناية أهل بغداد بالمكتبات والمخطوطات لم تنقطع أبدا . بل أنشئت فى العصر الحديث - الذى قل فيه الاهتمام بالمخطوطات - مكتبات خاصة عمرت بالمخطوطات والمطبوعات . وقد ذكر أسامة بن ناصر النقشبندى منها مكتبة ملا صابر بن محمد الكركوكلى ، ومحمد سعيد بن أحمد النقشبندى (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م) والأب أنستاس مارى الكرملى (١٢٦٣ - ١٣٦٦هـ / ١٨٤٦ - ١٩٤٧م)

وعبدالوهاب ابن عبدالقادر المعروف بالنائب (١٢٦٩ - ١٣٤٥هـ/ ١٨٥٢ - ١٩٢٧م) وعباس ابن محمد العزاوى (١٣٠٧ - ١٣٩١هـ / ١٨٩٠ - ١٩٧١م) .

وبلغ من إعزاز عباس العزاوى لمكتبته أن قيل إنه لما انعقد أول اجتماع لوزراء الخارجية فى بغداد ، بعد تأسيس جامعة الدول العربية ، طلبوا رؤية مكتبته ، فدعاهم إلى منزله وأراهم المكتبة من بابها دون أن يدخلهم إليها خشية عليها .

وعلى الرغم من كل هذه العناية ، لم تسلم مخطوطات العراق عامة وبغداد خاصة من عاديات الزمان . وأشنعها التدمير الذى صبته الهمجية المغولية فى (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) ، وكاد يقضى على كل ما يتصل بالحضارة العربية ، لولا ما استنقذه سائر العالم الإسلامى وخاصة مصر والشام .

واليوم ، يثور الحقد الأسود ، وتلتهب البربرية الرعناء ، وترسل التدمير جوا ، وتشيعه أرضا ، وتصبه قصدا واستهانة ، عن معرفة وعن جهل ، ولكن بأسلحة أشد هولا ، وأعظم فتكا ، وأشنع تدميرا مما كان لدى مغول البرارى الآسيوية .

والأمر الذى رحبنا به فى إبانه ، ونأسى له كل الأسى ، أن بغداد شهدت نهضة عظيمة فى العناية بالمخطوطات فى النصف الأخير من القرن العشرين . فقد صدرت التشريعات واحدا بعد الآخر ، لتسجيل المخطوطات ، والمحافظة عليها ، وصيانتها ومعاقبة التفريط فيها . وأخيرا صدرت الأوامر بجمع المفرق منه فى المساجد والمدارس والمراكز العلمية فى مكتبة المتحف العراقى . وتم هذا الجمع أو القسط الأكبر منه . فى صورة رائعة .

يقول أسامة النقشبندى : إن هذه المكتبة كانت تضم فى سنة ١٩٦٢م (٢٧٧٤ مخطوطا) ، صارت فى نهاية عقد الستينيات (٤٢٤٩ مخطوطا) ، وقفزت فى ١٩٨٨ إلى (٣٧٠٨٣ مخطوطا) ، ووصلت فى ٢٠٠٢ إلى (٤٧٠٠٠ مخطوط) وكانت تقتنى ما يزيد على (١٥٠٠٠) لوحة ورقعة خطية نفيسة . ويكشف هذا العدد كيف كانت النكبة ماحقة .

ولست أدرى ماذا كان مصير المكتبات الخاصة التى احتفظت بمخطوطات ، واكتفى المتحف بتسجيلها ، وتزويدها بمن يرممها ويصونها .

واتسع نطاق جهود المتحف (الذى سمى دار صدام) إزاء المخطوطات فأسس عدة أقسام لتضطلع بالأنشطة التالية :

- قسم الفهرسة والتصنيف .

ـ قسم الميكروفيلم والتصوير الدقيق .

ـ قسم البحوث والدراسات .

ـ قسم الحيازة والمتابعة والتدقيق .

ـ قسم الصيانة والترميم والتجليد والتعقيم .

والتفت المتحف إلى ضرورة تصوير المخطوطات على الميكروفيلم ؛ حتى لا تتداولها أيدى القراء والمستعملين فيلحق بها التلف . وفرغ من تصوير أكثر من ستة ملايين صفحة من المخطوطات . كما صور المخطوطات المزوقة والمنمنمات بالكاميرات الرقمية عالية الدقة أو بواسطة الماسح الضوئى . وأنتج أقراصًا مليزرة منها .

وواصل العمل الذى افتتحه أفراد عراقيون منذ زمن بعيد لصنع فهارس لما تحويه بعض المكتبات من مخطوطات ، مثل الفهرس الذى صنعه نعمان خير الله الآلوسى (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م) لعشرة مكتبات ، وفهرس الدكتور داود الجلبى فى الموصل ، وما نشره كوركيس عواد فى مجلة سومر . وأتاح المتحف للأستاذ أسامة ناصر النقشبندى أن يصدر منفردا أو مع د . ظمياء محمد عباس نحو عشرين فهرسا ، نشرها فى كتب أو فى مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية والمورد وسومر ، وتناولت اللغة ، والفقه وأصوله ، والموسيقا والغناء ، والحساب والهندسة والجبر ، والطب والبيطرة والصيدلة ، والفلك والتنجيم ، والتاريخ والتراجم والسير ، والأدب والشعر ، والحديث النبوى وعلومه ، والخزانة الآلوسية ، والعمرية ، وخزائن رشيد عالى الكيلانى ، وعباس العزاوى ، وإبراهيم عطار باشى ، وكوركيس عواد ، والأب أنستاس مارى الكرملى .

وتكشف لنا هذه الفهارس ـ إذا كانت كاملة ـ حجم الفادحة التى حلت بالتراث العربى ، وتضع فى أيدينا البراهين الساطعة التى تكشف ما قد يظهر بعد من مسروقاته ، فتسهل المطالبة القانونية به .

ولكن هل يمكن أن نستعيد ما فقدنا؟

لاشىء يمكن أن يعوض عن المخطوطة الأصلية .

لا يعوِّض عنها صورتها الفيلمية ؛ لأن الأصل هو الأصل ، ولأن التصوير كثيرا ما تعتوره شوائب تعيبه .

ولا يعوض عنها أخت لها ؛ لأنه ـ فى عالم التحقيق ـ لا تغنى نسخة عن نسخة ، إلا إذا كانت منسوخة منها . ومع ذلك إذا كان ناسخها من العلماء أو المتمرسين الأذكياء ، فقد

يهتدى إلى حسن القراءة والفهم ، فيصير فى نسخته من الفوائد القيمة ما ليس فى أصلها المنسوخة عنه .

ثم كيف استعادة ما تمزق وما تبدد؟

إنها حرب الهمجية ضد الحضارة ، حرب الجهل ضد المعرفة ، حرب جحافل الظلام ضد أشعة الضياء .